الباب الأول

ملامح شخصية ابن خلدون

- شخصية ابن خلدون
- منهج المقـــدمة
- ابن خلدون فى مصـر وأثرها فيه

ملامح شخصية ابن خلدون

(١)

شخصية ابن خلدون

يعدّ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون من الشخصيات الإسلامية الفذة فى العصور الوسيطة ، وهو وإن كان مغربى الميلاد والنشأة والثقافة – فقد ولد فى تونس سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م) وظل يقيم فى أقطار المغرب حتى سنة ٧٨٤هـ– فإنه قسمة بين المغرب والمشرق ؛ لأنه عاش فى هذا القسم الثانى من الوطن الإسلامى ، وفى مصر على وجه التحقيق ، ما يناهز ربع قرن من الزمان ، فقد وصل إلى القاهرة سنة ٧٨٤هـ وتوفى ودفن فى مقابرها سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م) .

كانت شخصية ابن خلدون جذابة من كل جوانبها ، ولكن جانبين اثنين منها قد جذبا أنظار القدامى والمحدثين من الباحثين ، أما الجانب الأول فهو الجانب الفكرى والثقافى ، وأمّا الجانب الثانى فهو الجانب السياسى .

فأما الجانب الثقافى فيتمثل فى تحصيل ابن خلدون للعلم ثم عطائه فيه ، ذلك العطاء الوفير المتسم بعمق الفكر ودقة استقراء الأحداث ، ففى الجانب التّحصيلى حفظ القرآن ودرس علومه ، كما درس الحديث الشريف والفقه والأصول واللغة والأدب والتاريخ وأضاف إلى ذلك كله دراسة المنطق والفلسفة ، وقد كان بعض علماء زمانه لا يحفلون كثيراً بدراسة العلمين الأخيرين ، بل يحرمون دراستهما .

ولقد جلس ابن خلدون للتدريس فى أكثر البلدان التى حل بها ، وكانت المساجد الكبرى والمدارس الشهيرة دون سواها مقار لحلقات دروسه ، كما كان تلاميذه من صفوة الدارسين الذى صاروا علماء مرموقين فيما بعد .

إن أهم الأماكن التى قام بالتدريس فيها جامع القصبة فى مدينة بجّاية ، وجامع القرويين فى فاس ، والجامع الأزهر فى القاهرة ، والمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو ابن العاص فى الفسطاط ، والمدرسة الظاهرية البرقوقية فى حى بين القصرين فى القاهرة المعزية والمدرسة الكاملية .

إن التدريس فى هذه الأماكن لم يكن ميسوراً لجمهرة العلماء ، وإنما كان مقصوراً على خاصتهم والصفوة من بين صفوفهم ، وكان لا يتم إلا بأمر من السلطان . ولقد جلس إلى ابن خلدون فى مصر بعض التلاميذ الذين صاروا من مشاهير علماء الإسلام فيما بعد ، مثل شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى ، ومؤرخ الإسلام تقى الدين المقريزى ، وقد وصفا حلقات دروسه وصفاً عظيماً .

ونحن حين نلمح إلى مسيرة ابن خلدون فى تحصيل العلم ، ثم فى الجلوس لنشره على الدارسين لا يجمل بنا أن نهمل الإشارة إلى فترة عزلته للقراءة والتأليف ، ففى الخامسة والأربعين من عمره اعتزل الناس وآوى إلى أحد قصور بنى عريف فى قلعة ابن سلامة ، التى تقع فى مدينة ندرومة الحالية التابعة لولاية تلمسان غير بعيد عن الحدود الجزائرية المغربية ، وظل بها عاكفاً على الكتابة لمدة أربع سنوات أخرج فيها كتابه « العبر » و « المقدمة » المشهورة التى هى فى حقيقتها مقدمة للكتاب ، والتى أثارت كثيراً من الجدل للجرأة التى اتسمت بها محتوياتها التى صارت نظريات جديدة فى علمى التاريخ والاجتماع .

ومن عجب أن كتابه « المقدمة » لم يستغرق من المؤلف – حسب تقريره – أكثر من خمسة أشهر فى النصف الأول من سنة ٧٧٦هـ ، فى حين استمر عمله فى كتابة التاريخ بقية السنوات الأربع التى تفرغ فيها للكتابة .

إن ابن خلدون يقرر ذلك فى القسم الذى أرخ فيه لحياته من كتابه « العبر » (التعريف) فيقول : « فأقمت بها –أى بقلعة ابن سلامة– أربعة أعوام متخليًّا عن الشواغل كلها ، وشرعت أضع هذا الكتاب وأنا مقيم بها ، وأكملت المقدمة منه على هذا النحو الغريب الذى اهتديت إليه فى تلك الفترة ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر ، حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها » ..

وبهذه المناسبة لم يكن ابن خلدون الوحيد بين علماء المسلمين الذين أرخوا لحياتهم ، فهم من الكثرة بمكان ، وإن الترجمات الذاتية التى وصلت إلينا تحفل بكل غريب وتفيض بكل عجيب ، ولكن ابن خلدون ينفرد بضرب من القول ملفت للنظر ومحرك للفكر حين يذكر أنه أكمل المقدمة « على هذا النحو الغريب الذى اهتديت إليه ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر » .

لقد كان ابن خلدون يعرف قيمة ما توصل إليه ، وغرابة ما أتى به من فكر ونظريات قبل أن يلتفت إلى ذلك دارسوه والمهتمون به من المستشرقين .

هذا هو ابن خلدون من الجانب العلمى –فى سطور قليلة– تحصيلاً ثم تدريساً وعطاءً ، وبين الفترتين تفرغاً وكتابةً وإبداعاً .

ولكن لا ينبغى أن تصرفنا شخصية ابن خلدون عن التقرير بأنه لم يكن العالم الأوحد فى زمانه –طبقاً لتصور خاطئ عند كثير من الناس– فلقد كان هناك مئات غيره ، معاصرون له ، ذوو مكانة فى العلم رفيعة ، وسدّة فى الفكر عالية ، ويمكن الرجوع فى ذلك على سبيل المثال لا الحصر إلى « **الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة** » للسان الدين بن الخطيب صديق ابن خلدون ، و « **الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة** » لشيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلانى تلميذ ابن خلدون ، و « **الضوء اللامع** » للسخاوى ، غير أن ابن خلدون هو أعلاهم صوتاً ، وأبعدهم صيتاً ، وأغربهم فكراً ، وأجرأهم على الاستقراء والابتكار ، بغض النظر عن صواب ما توصل إليه أو خطئه .

أما الجانب الآخر من حياة ابن خلدون فهو الجانب السياسى ، ذلك أن ابن خلدون كان رجل سياسة إلى جانب كونه رجل فكر وعلم وثقافة ، ولقد أفاد من السياسة كثيراً ، فتقلد أسمى المناصب من وزارة وسفارة وحجابة ، كما أنه لقى منها أسوأ العواقب فدخل بسببها الحبس أكثر من مرة .

ويمكن القول فى هذا السبيل إن شخصية ابن خلدون كانت تجتذب أنظار السلاطين والرؤساء ، فلقد اجتذبت شخصيته نظر سلطان تونس، فعينه فى منصب « كاتب العلامة » ولما يكن قد بلغ الثامنة عشرة من سنيه ، كما جذبت أنظار السلطان أبى عنان المرينى ، فعينه عضواً بمجلسه ، وكلفه شهود الصلوات معه ولما يتجاوز الثانية والعشرين ، وعينه بعد ذلك السلطان أبو سالم المرينى فى منصب كاتب السر والإنشاء ، ثم قلده **خطة المظالم** ، وحين ذهب ابن خلدون إلى غرناطة أرسله السلطان محمد بن الأحمر **سفيراً** إلى أمير قشتالة للتوسط فى إبرام صلح بينهما .

وحين عاد ابن خلدون من الأندلس ونزل على أمير بجّاية قلده **الحجابة** ، وهى أعلى منصب فى الدولة ، بحيث كان يسوس من خلاله أمر المملكة ، ويصف ابن خلدون عمله فى هذا المنصب قائلاً : « فأصبحت من الغد وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابى ، واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدى فى سياسة أموره وتدبير سلطانه ، وقدّمنى للخطابة بجامع القصبة ، وأنا مع ذلك عاكف بعد انصرافى من تدبير الملك غدوة إلى تدريس العلم فى أثناء النهار بجامع القصبة لاأنفك عن ذلك » .

ولما ارتحل إلى مصر لم يكد يمضى فيها عامين حتى عين قاضياً للقضاة على مذهب الإمام مالك ، ولقد تقلد هذا المنصب ست مرات فلم يكن يكاد يستقر فيه حتى يعزل منه ، ثم يعاد إلى المنصب ، ثم ينحى عنه ، وهكذا دواليك عدة مرات إلى أن توفى بعد ولايته السادسة بأيام .

وكان ابن خلدون وهو فى مصر مقرباً من السلطان الناصر فرج ، فاصطحبه معه

فى رحلته إلى دمشق حين توجه لملاقاة تيمورلنك ، الطاغية المغولى الذى كانت جيوشه قد اكتسحت المشرق الإسلامى جميعاً .

على أن الظاهرة التى تلفت النظر إلى شخصية ابن خلدون بشكل أكثر عمقاً هى أنه لم يكن يجتذب اهتمام ملوك المسلمين وسلاطينهم وحدهم ، وإنما كان يجتذب اهتمام الملوك الغزاة والمعتدين أيضاً ، بحيث يألفونه ويقربونه إليهم ، ويعرضون عليه العمل معهم والبقاء فى بلاطهم .

لقد سلف القول إن السلطان محمد بن الأحمر أرسل ابن خلدون سفيراً عنه إلى أمير قشتالة للتوسط فى عقد صلح بينهما ، وفى تلك السفارة انتهز ابن خلدون الفرصة ، فزار ديار أهله فى إشبيلية ، حيث كانوا يستوطنونها قبل سقوطها فى يد الفرنجة . لقد بلغ من إعجاب الأمير القشتالى بابن خلدون مبلغاً كبيراً ، حتى إنه عرض عليه أن يرد عليه جميع أملاك أسلافه إن رضى بالإقامة عنده .

وحين التقى ابن خلدون بتيمورلنك ، وتمت المقابلة بالطريقة المثيرة التى أوردتها كتب التاريخ لكى يطلب الأمان لسكان دمشق – فقد نزل متدلياً بالحبال من سور المدينة حيث صحبه القادة المغول إلى سلطانهم – أحسن السلطان لقاءه ورحب به ، ولم تكن تلك سبيل القائد المغولى فى لقاء الناس ، فقد كان فظًّا خشناً سفاكاً للدماء ، ولكن شخصية ابن خلدون ولباقته جذبته إليه بحيث حاول استبقاءه لديه طبقاً لبعض الروايات ، وذلك فضلاً عن تكليفه إياه كتابة كتاب عن بلاد المغرب .

لقد كانت شخصية ابن خلدون جذابة للخاصة والجمهرة على حد سواء ، كما كانت أكثر جاذبية للملوك والرؤساء ، وليس لذلك من علة إلا صفات بعينها تجمعت فيه ، فتفرد بها دون كثيرين غيره من معاصريه ، ولعل أدق وصف لشخصية ابن خلدون هو قول صديقه وخصمه فى الوقت نفسه لسان الدين ابن الخطيب . إن لسان الدين يقرر أنه « رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، خاص الزى ، عالى الهمة ، عزوف عن

الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم فى فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مُغرى بالتّجلّة ، جواد ، حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، عاكف على رعى خلال الأصالة » .

إن لسان الدين بن الخطيب كان واحداً من قادة عصره – وعصر ابن خلدون – علماً وفكراً وأدباً وسياسة ، وهو يجيد الحكم على الرجال ، أما وهو صاحب قلم مطواع فإنه قد أحسن تصوير شخصية ابن خلدون فى تلك الكلمات القليلة التى سطرها فى تسجيل صفات ذلك العالم الكبير .

إن ابن خلدون المعلم والقاضى لا يعنينا كثيراً فى هذا المجال ، فقد جلس للتعليم قبله مئات من الأساتذة العظام ، وكذلك الحال فيما يتعلق بابن خلدون القاضى ، ذلك أن ابن خلدون لم يدخل تاريخ الفكر الإسلامى من أىٍّ من هذين السبيلين ، ولكنه دخله كواحد من كبار المفكرين المسلمين ، ثم الإنسانيين ، وقد أهّله لذلك بعض صفاته التى سجلها لسان الدين فى قوله : « متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، عاكف على رعى خلال الأصالة » .

هذه المزايا هى التى جعلته يستقرئ التاريخ أحسن استقراء ، ثم يعيش بين الناس دارساً خلالهم ، متفحصاً ذواتهم مجتمعين ومتفرقين ، متحضرين وبادين ، متعلمين وعامة ، حرفيين وزرّاعا ، رؤساء ومرءوسين ، وانتهى بعد ذلك إلى تصورات سجلها ، وأحكام أصدرها ، ونظريات قررها ، عامداً فى ذلك إلى التحليل الجيد والتبرير المقبول ، وجعل ذلك جميعاً مقدمة لكتابه الذى ألفه فى التاريخ ، ثم ذاعت شهرتها منفصلة عن تاريخه فعرفت بالمقدمة .

(٢)

منهج المقـــدمة

إن براعة ابن خلدون فى المقدمة لا تقف عند المحتوى وحده ، ولكنها تتمثل فى المنهج والمحتوى على حد سواء . إنه يضمنها كل ما يتصل بالعمران الإنسانى من أسس وقواعد وتفريعات وتحليلات واستقراءات ونتائج ، الشىء الذى جعل منها الأساس الأول لما قد عرف فيما بعد بعلم الاجتماع ، وإن كان لفظ العمران الذى اختاره ابن خلدون يعتبر من وجهة نظرنا أقرب إلى الدقة وأدنى إلى الحقيقة ، وها نحن نسوق هذا التلخيص لمحتوى المقدمة ، ذلك المحتوى الذى يضع ابن خلدون -دونما سبْق أو مشاركة أو منافسة- فى مقام الريادة الفكرية والقيادة الذهنية لعلم العمران البشرى الذى عرف مؤخراً بعلم الاجتماع .

أولاً : فى العمران البشرى على الجملة ، وأصنافه وقسطه من الأرض :

وفيه يقرر أن الاجتماع الإنسانى ضرورة لا مفر منها ، كما يتحدث حديثاً جغرافيًّا طويلاً يفصل فيه القول عن البيئة الجغرافية ، وأثرها فى أخلاق الناس وألوانهم وطبائعهم وأساليب حياتهم وطرائق معيشتهم ، ثم يستطرد إلى تناول موضوعات : الوحى والرؤيا والتبؤ بالغيب والنبوة ، والكهانة ، والتصوف .

ثانياً : فى العمران البدوى وذكر القبائل والأمم الوحشيّة :

وفى دراسات عن الشعوب البدوية ، ونشأتها ، وألوان من حياتها وطبائعها ، وأساليب الحكم والسياسة المرتبطة بها .

ثالثاً : فى الدول ، والخلافة ، والملك ، والمراتب السلطانية :

وفيه يعرض المؤلف لشئون الحكم والسياسة بكثير من التفصيل ، وفيه تظهر نظريته فى الإمامة والخلافة وولاية العهد والقضاء والوزارة والدواوين وما إليها .

رابعاً : فى العمران الحضرى والبلدان والأمصار :

يتحدث فيه عن نشأة المدن والأمصار ومواطن التجمع البشرى ، ثم يفرد حديثاً للمدن وما تتميز به من ناحية العمران والحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادى والتطور اللغوى .

خامساً : فى الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه :

يتحدث فيه عن المعاش وأصنافه ومذاهبه ، من وظائف متعلقة بالدين ، كالقضاء والإفتاء والتدريس ، وأخرى كالفلاحة ، والتجارة ، والصناعات التى يعدد أنواعها ، كالبناء والنّجارة والحياكة والخياطة والطب والوراقة والغناء . ويربط المؤلف بشكل أساسى بين الصناعة والمدن .

سادساً : فى العلوم واكتسابها وتعلّمها :

فى هذا الفصل يربط بين العلم والتعليم العمرانى البشرى ، ويجعل العلم من جملة الصنائع ، ثم يفصل القول فى أصناف العلوم ، ويقسمها إلى علوم القرآن ، وعلوم الحديث ، وعلوم الفقه ، وعلم التصوف ، والعلوم العقلية ، والعلوم العددية ، والعلوم الهندسية ، وعلم الهيئة ، وعلم الطبيعيات ، والمنطق ، والطب ، والفلاحة ، والإلهيات ، والسحر . وقد أفاض ابن خلدون فى الحديث عن هذه العلوم وفروعها إفاضةً تدل على قدر كبير من الثقافة وطاقة ضخمة من الاستيعاب .

(٣)

ابن خلدون فى مصر وأثرها فيه

قبل أن نختم الحديث فى هذا السياق المختصر عن شخصية ابن خلدون يجمل بنا أن ننوه بأثر البيئة المصرية فى شخصيته وفكره . لقد عاش ابن خلدون أحد النصفين الناضجين من حياته فى مصر ، وذلك على اعتبار أن فترة نضجه استمرت نحواً من

خمسين سنة ، وليس من شك فى أن مرحلة التكوين الثقافى والنشأة العلمية والعطاء الفكرى قد استكملت حلقاتها قبل مجيئه إلى مصر ، ولقد حدث ذلك مع أعلام كبار وفدوا إلى مصر قبله ، ومع ذلك فقد صنعت الحياة المصرية تحولاً ملموساً فى فكرهم وعطائهم ، وإذا كان المجال هنا يضيق عن حصر نماذج الرجال الذين تأثروا بالحياة فى مصر ، فإننا نكتفى بضرب بعض الأمثلة لعدد من عظماء الأمة الإسلامية مثل الإمام محمد بن إدريس الشافعى فى مجال الفقه ، وأبى الطيب المتنبى فى مجال السّلوك والشعر ، والمسعودى فى مجال التاريخ .

فأما الإمام الشافعى فقد أعاد النظر فى فقهه حين استقرّ به المقام فى مصر ، حتى « رسالته » المشهورة أعاد صياغتها فى مصر ، وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل فى شأن فقه الإمام الشافعى فى مصر وقبل مصر ، وأى الفقهين ينبغى الأخذ به ، فكانت إجابته أن الفقه الشافعى الأكثر اعتماداً هو ذلك الذى كتبه الإمام فى مصر ، والشىء ذاته يقال عن أبى الطيب المتنبى ، فلقد حدث تطور فى سلوكه إبان حياته فى مصر ، فصار يتصل بالناس ويكثر من اتخاذ الأصدقاء ، ويختلف إلى مجالس العلماء فى جامع عمرو ، ويتردد على دكاكين الورّاقين ، ويجلس إليهم الساعات الطويلة ، وأما من ناحية فنّه وفكره فى مجال الشعر ، فقد تحول المتنبى من داعية للعنف ودقاق لطبول الحرب إلى داعية مودة بين الناس ، ومبشر بالسلام ، ومستنكر لأساليب العنف بين البشر ، ولعله قد أحسن تصوير مذهبه هذا فى قصيدته النونية البليغة التى مطلعها :

صَحِبَ النـاسُ قَبْلَنَـا ذا الزَّمَانَـا وَعَنَاهُـمْ مِنْ أَمْـرِهِ مَا عَنَانَـا

ونستطيع تطبيق الرأى نفسه على المسعودى الذى وفد إلى مصر وأقام فيها السنوات الأخيرة من عمره ، وفيها أنتج كثيراً من التآليف ، ونقح كتبه السابقة ، ويعتبره ابن خلدون على رأس المؤرخين المسلمين .

نعود إلى صاحبنا ابن خلدون وحياته فى مصر ، فنجد أنه قد وفد إليها محبًّا مشوقاً ، فلقد سمع عنها أنها بلاد الخير والرخاء ، وأنها عاصمة العلم والنور ، ولقد ذكر

ذلك فى القسم الخاص بالعلم والعمران فى المقدمة ، فلما عزم على المجيء إليها كان هدفه الإقامة والاستقرار ، وما إن وطئت قدماه أرضها حتى لمس أن الحقيقة أبلغ من الخبر « وليس راءٍ كمن سمعا » وها هو ذا يصفها بقلمه فيقول :

« فانتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة – ٧٨٤هـ – فرأيت حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذرّ من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل والعلل سيْحه ، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثَجّه .

ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ، ومازلنا نحدّث عن هذا البلد وبُعد مداه فى العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا – حاجّهم وتاجرهم – بالحديث عنه .

سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المقرى مَقْدَمَهُ من الحج سنة أربعين – يعنى أربعين وسبعمائة – فقلت له : كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عزّ الإسلام . وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال : كأنما انطبق أهله من الحساب ، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب . وحضر صاحبنا قاضى العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان ، مُنْصَرَفَهُ من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين ، وسأله عن القاهرة فقال : أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار : إن الذى يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التى تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها »[1] .

---

(١) التعريف بابن خلدون ص ٢٤٦ – ٢٤٨ .

نعود إلى ابن خلدون وحياته فى مصر فنقرر أنه ارتبط بها ارتباطاً عضوياً يتمثل فيما يلى :

أولا : أنه عاش فى مصر ما يناهز ربع قرن من الزمان ، على وجه التحديد من سنة ٧٨٤ إلى وفاته سنة ٨٠٨هـ ، وكانت هذه الحياة موصولة متتابعة لم تقطعها إلا رحلات محدودة .

ثانياً : فى إبان حياته بمصر عمل ابن خلدون على تنقيح كتابه الكبير « **العبر** » كما صنع فيه إضافات هامة تمثلت فى أخبار دول المشرق الإسلامى ، ووصل بأحداث التاريخ إلى نهاية القرن الثامن الهجرى بعد أن كان وقف بها عند سنة ٧٨٣ ، وهى السنة السابقة على مجيئه إلى مصر . يذكر ابن خلدون عن رحلته إلى المشرق وإقامته فى مصر أنه أفاد ما نقص من أخبار ملوك العجم ودول الترك قائلاً : « ثم كانت الرحلة إلى المشرق لاجتلاء أنواره ، وقضاء الفرض والسنة فى مطافه ومزاره ، والوقوف على آثاره فى دواوينه وأسفاره ، فأفدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار ، ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار ، وأتبعت بها ما كتبته فى تلك الأسطار ، وأدرجتها فى ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحى ، وملوك الأمصار والضواحى ، سالكاً سبيل الاختصار والتلخيص ، مفتدياً بالمرام السهل من العويص ، داخلاً من باب الأسباب على العموم إلى الأخبار على الخصوص ، فاستوعب -أى الكتاب- أخبار الخليقة استيعابا ، وذلك من الحِكم النافرة صعاباً ، وأعطى لحوادث الدول عللاً وأسباباً ، وأصبح للحكمة صواناً وللتاريخ جراباً » .

ولقد فعل ابن خلدون وهو فى مصر نفس الصنيع بالمقدمة ، فأجرى بها بعض الزيادات التى اقتضتها الإقامة ، وأضاف إليها بعض المكتسبات التى طرأت على حصيلته العلمية والفكرية ، وهو يقرر ذلك فى سياق بعض فصول المقدمة مثل قوله فى الفصل الذى خصصه للعلوم العقلية : « ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من

عظماء هَرَاة(٥) من بلاد خراسان ، يَشْتَهِرُ بسعد الدين التفتازانيّ ، منها فى علم الكلام وأصول الفقه والبيان ، تشهد بأن له ملكة راسخة فى هذه العلوم ، وفى أثنائها ما يدل على أن له اطلاعاً على العلوم الحِكَمِيَّةِ ، وقدماً عالية فى سائر الفنون العقلية »(٢) .

وإذن فأثر مصر فى ابن خلدون واضح الوضوح كله ، ولقد كتب غير قليل من فصول المقدمة فى مصر ، وأغلب ظننا أن الفصول الخاصة بعلم الكلام وعلم التصوف وفصول العلوم العقلية قد كتبت فى مصر وأضيفت إلى المقدمة ، أو أعيدت صياغتها فى مصر بعد الإضافات الكثيرة التى أشار إليها فى غير موضع من مواضع الكتاب .

ومن البداهة بمكان أن يكون ابن خلدون قد أضاف إلى الترجمة التى كتبها لنفسه – وألحقها بالمجلد الأخير من كتاب العبر – تفاصيل حياته فى مصر بكل ما احتوته من أعمال وما اشتملت عليه من أحداث .

ثالثاً : تولى ابن خلدون التدريس فى مدارس متعددة فى مصر سبقت الإشارة إلى أنها مدارس متميزة المكانة عالية الرتبة ، كما تولى التدريس فى الأزهر الشريف ، واستطاع من خلال ذلك أن ينقل أفكاره إلى عدد كبير من الدارسين المصريين ونظرائهم الوافدين إلى مصر لطلب العلم فى معاهدها والالتحاق بمدارسها ، ولقد خلف المفكر الكبير عدداً من التلاميذ المصريين النابهين حسبما سلفت الإشارة ، لعل فى مقدمتهم شيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلانى ، وتقى الدين المقريزى ، كان الأول تلميذه فى فنون عديدة من المعارف الدينية والدنيوية التى أهمها الفقه والحديث والتاريخ والتراجم ، وكان الثانى تلميذه فى التاريخ ، وقد صار تبعاً لذلك شيخ المؤرخين المصريين فى العصر المملوكى ، بل شيخ المؤرخين المسلمين بعامة فى عصره .

رابعاً : من الوظائف التى تولاها ابن خلدون فى مصر منصب شيخ خانقاه بيبرس ، وكان بمصر عدد كبير من الخانقاهات التى يتجمع فيها الصوفية ، وكانت

(٥) موقعها حالياً فى أفغانستان « هِرات » بكسر الهاء فى أولها وتنطق بالتاء المفتوحة فى آخرها .

(٢) المقدمة ص ٤٨١ الطبعة الثالثة – بيروت .

خانقاه بيبرس من أكبر ما عرف من هذا النمط من المؤسسات ، وفيها كان يعيش عدد كبير من الصوفية يمارسون حياتهم الخاصة ذات الطقوس الغريبة ، من ذكر وتلاوة وأوراد وإقبال على العبادة وانقطاع عن الناس ، ولقد كانت مخالطة ابن خلدون لهؤلاء الصوفية عن قرب واندماج ، دافعة له فى تسجيل الجديد من الأفكار عن هذا الفريق من المسلمين .

خامساً : هيأت إقامة ابن خلدون فى مصر له القيام بثلاث رحلات ذات أهمية كبيرة ، الأولى كانت لأداء فريضة الحج ، والثانية سافر فيها إلى فلسطين وفيها زار بيت المقدس ، والثالثة كانت إلى دمشق فى صحبة السلطان فرج حين توجه لملاقاة تيمورلنك الذى كانت جيوشه قد اكتسحت مشرق العالم الإسلامى ، وقد سعى ابن خلدون للقاء القائد المغولى لكى يطلب الأمان لأهل دمشق . لقد كانت سفارة غريبة ، ولكن ابن خلدون ، وهُو رجل سياسة إلى كونه واحداً من كبار علماء الزمان ، قد استطاع أن يكسب احترام تيمورلنك ، وجرت بينهما أحاديث ودية طويلة ، وربما طمع العالم الكبير فى أن يلتحق بخدمة الطاغية المغولى ، ولكن أسباباً بعينها قد قعدت به عن إدراك مطمحه ، ولعل من أهم ثمرات ذلك اللقاء هو الكتاب الذى ألفه ابن خلدون للقائد المغولى عن بلاد المغرب استجابة لطلبه .

سادساً : لقد أوسعت مصر لابن خلدون صدرها ، فولى فيها المناصب الرفيعة ، وأصهر إلى بعض أسرها ، وكان أفراد أسرته قد ماتوا جميعاً غرقاً وهم فى الطريق إلى مصر بحراً حين أرادوا اللحاق به . واقتنى ضيعة فى الفيوم كانت تمده بالخير والنعمة ، ثم إن ثراها فى نهاية الأمر قد ضم رفاته ، فقد أسلم العالم الكبير الروح فجأة وانطفأ سراج حياته فى السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٨٠٨هـ ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر ، وكانت أولى لياليه فى حياته الأخرى هى ليلة القدر بعد أن عمّر ستة وسبعين عاماً هجرية .

□○□○□○□